التوجه الإسلامي للأدب والنقد

ملامح منهجية في كتابات الإمام محمد البشير الإبراهيمي

The Islamic approach to literature and criticism

Systematic features in the writings of Imam Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi

آية اللّه عاشوري*

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر

الملخص:

كان للشيخ محمد البشير الإبراهيمي الدور البارز في الحركة الأدبية والنقدية الجزائرية، وخير دليل على ذلك إسهاماته وآراءه الصحفية، التي تعد بحق خير موجه للأدباء والنقاد، المتضمنة للنصائح والشروط التي ينبغي أن ينحى الأدباء والكتاب الذين كانوا يرغبون في الإنشاء والقول منحاها، كما أنه استعمل ثقافته اللغوية والأدبية الكبيرة في انتقاد الأدباء والشعراء وتقييمهم وتنبيههم إلى مواطن الجودة والرداءة في أعمالهم.

سنحاول في هذه المقال رصد ملامح التوجه الاسلامي في أدبه

الكلمات المفاتيح: الابراهيمي، الادب الجزائري، الادب الاسلامي

Abstract:

Sheikh Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi had a prominent role in the Algerian literary and critical movement, and the best evidence of this is his journalistic contributions and opinions, which are rightly considered good for writers and critics, which include advice and conditions that writers and writers who wished to create and say should give them away, and he also used his culture The great linguistic and literary criticizing writers and poets, evaluating them, and alerting them to the quality and mediocrity of their works.

In this article, we will try to monitor the features of the Islamic trend in his literature

Keywords: Ibrahimi, Algerian literature, Islamic literature

****

* جامعة بجاية

مقدمة:

يعتبر الأدب أحد أشكال التّعبير الإنساني عن مجمل انشغالات الإنسان، وأفكاره، وخواطره بأرقى الأساليب التي تتنوّع بين النّثر والشّعر، بلغة ذات مضمون عقلي أو وجداني، يمزجها الخيال والواقع باستخدام العبارات التي تصور المعاني وتوحي بالفكر، وتثير الخيال وهذا ما أراد قوله أنطونيوس بطرس في تعريفه للأدب بأنّه: «الكلام المنظوم أو المنثور المعبر بأسلوب فني جميل ينصح بالعذوبة والأحاسيس. هو كل ما له صلة بذات الإنسان المنفعلة والميول والنزاعات والغايات، شرط أن يترجمه كلام مصور وموح، تطرب له النفس وترتاح وبمقدار ما يكون صادقا، ويلامس الحميم من أحاسيسنا، تكتب له الحياة ويستمر. ونقول عندئذ، انه وليدة موهبة فنية خالصة، لا رياء فيه ولا تكلف. وغالبا ما يكون الأدب مرآة لنفس صاحبه، ولبيئته وعصره».[1]

إن التوجه الإسلامي للأدب والنقد، يجب أن تتوفر له الكفاءات المقتدرة لتبحر في مركبه وسط الأمواج المتلاطمة.

يقول محمد الرابح الحسني: «لقد ظهر هذا الاتجاه الأدبي السليم الملتزم لأول مرة في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، واشتمل على أصناف وأنواع أدبية مختلفة من الكلام الأدبي، وقلده واتبعه فيه صحابته رضي الله عنهم، ثم الذين أتوا من بعدهم من أتباعهم، بل وطوروا البيان الأدبي وفقه ونوعوه، ملتزمين فيه، ومحتفظين بالسمة السليمة المقتبسة من المنهج القرآني للبيان الأدبي، ومن بيان الرسول عليه السلام، فوجد في بذلك في موضع كل لون من الأدب الجاهلي لون من الأدب الإسلامي...».[2]

وإشكالية مصطلح التوجه الإسلامي تنمو بفعل الخصوم، والخصوم فئتان: فئة تريد للمبدع والناقد التخلص من سيطرة الدين، وهذه الفئة تنسجم مع دعوات التحرر من سلطة الماضي بما فيه الدين، والتهور بإسقاط كل القيم الأصيلة، فهي ترى استقلال الشكل الفني عن المضمون العقدي، وهذا يستتبع عزلة عن الحياة، وفقدان الأدب لروحه.

وفئة ترى أن مشروعية التناول الإسلامي قائمة منذ البعثة ولا حاجة إلى تأطيرها ضمن مصطلح متميز، وهذه الفئة لا تمنع أبداً مشروعية التناول بروح إسلامية، ونواياها حسنة ولكنها بحاجة إلى تجاوز الظاهر والخوض في عمق القضية. فهي تؤمن بثنائية الشكل والمضمون رافعة شعار الفن للحياة، وتؤكد على مبدأ الالتزام بقضية ما، وهذا ما يعرف بقضية الالتزام.[3]

وردا على تلك الشبهات، يقول محمد الرابح الحسني: «ثم إن الدين الإسلامي لم يكن دينا قاصرا محدودا في العبادات وحدها حتى يقال عنه: إنه إذا سايره أدب كان أدبا منحصرا في العبادات وحدها، بل إنما الإسلام هو الدين الفريد الذي اتسع كاتساع الإنسان، وامتد كامتداد حياته، ولم يتعارض إلا مع ما يتعارض مع مصلحة الحياة الإنسانية ذاتها ومع ذوقها الجميل، وإنه إذا تعارض فيتعارض مع عمليات الهدم والإخلال بصالح الإنسان وإنسانيته.

فلم يكن للعمل الأدبي أن يجد صعوبة في منادمة الإسلام ومسايرته، ولم يكن له عائق عن أن يجد تحقيقا لأهدافه في تصوير جوانب الحياة المتلائمة مع الإسلام».[4]

إن الحركة الإصلاحية لا تفصل بين الفن والحياة، فلا حياة بلا فن، ولا فن بدون حياة واعية. والتجربة جزء من الحياة أو هي الحياة بعينها، والإبداع بدون تجربة عبث ولهو، فالفن إذاً استعادة التجربة حركياً

وتعبيرياً. والإنسان في كل ذلك عنصر هام في التجربة.

يقول محمد الرابح الحسني: «الأدب يمثل الحياة ويصورها، ويعرض على القارئ والسامع صورا تنعكس وتبدو من مجالات العيش المختلفة، ويعرض عرضا جميلا ومؤثرا لشتى جوانبها وأشكالها، فتبدو فيه ملامح الكون والحياة وأشكالها المتنوعة، فعندما يفوتنا النظر إلى الحياة مباشرة ننظر إليها ونشاهدها في مرآة الأدب،شريطة أن يجيد الأدب عمله، وتصدق من صاحبه مقدرته وتحسن ملكته، وبذلك يصبح الأدب سببا لتخليد أحداث الحياة وصورها، فهي تلمس وتشاهد ولو بعد وقوعها بزمن بعيد إذا بقيت العبارة المصورة لها، وبقي التعبير الفني الجميل عنها، وبقيت معانيها وكلماتها مفهومة مثلما كانت مفهومة في أوانها.

فبالأدب يصل الإنسان إلى فهم ظواهر الحياة وتذوق كيفياتها، وقد يكون هذا الفهم والتذوق أحسن وأقوى من فهمها وتذوقها مباشرة بغير واسطة الأدب...».[5]

والمسلم الفذ هو الذي يعرف الحق ويثبت عليه، ويدعو إليه، ويتمثل الإسلام قولاً وعملاً على ما كان عليه سلف الأمة رضي الله عنهم. وعلى ضوء هذا تتجلى لنا حياة المسلم التي لا تعرف الفراغ فهي مليئة بالعمل لدنياه وآخرته، والكلمة الطيبة جزء من العمل الجاد المثمر فهناك ثبات وهناك سمو، والإبداع الفني لا بد أن ينطوي على الثبات والسمو.

وما الأدب الإسلامي إلا تجسيداً لهذا الثبات وهذا السمو، فالله لا يحب الجهر بالسوء، ويأمر عباده بأن يقولوا التي هي أحسن وينهى عن لهو الحديث، ويُثبت على القول السديد، ولا يصعد إليه إلا الكلم الطيب. وإذاً فثمة تلازم بين الكلمة الطيبة والإبداع. وإذ يكون التلازم.. تكون حتمية التوجه الإسلامي للأدب والنقد.

يقول محمد الرابح الحسني: «الأدب الإسلامي يتلقى روحه وهدايته من الإسلام، ومن حياة نبي الإسلام، والأدب غير الإسلامي يتلقى روحه وإرشاده من هوى الإنسان، وحياة كل هائم من الحيوان، وليس صحيحا أن الأدب بعد التزامه بالإسلام يصبح محدودا وقاصرا، لأننا حينما نشطب جانب الفساد والقبح من الحياة فالذي يبقى بعده في الأدب هو واسع وكثير ومتنوع الجوانب ومختلف الصور والأشكال، ولن يشعر الممارس له والمستفيد به أي قصور فيه لقضاء حاجته من الأدب، بل إن ما يجده يخدمه في كل ما يعينه في حياته».[6]

من الرعيل الأول من الأدباء والنقاد الجزائريين الذين سطع نجمهم في سماء الفكر والإصلاح، الإمام محمد البشير الإبراهيمي، إنه الفذ الذي وهب نفسه، ونذر وقته خدمة للإسلام والعروبة، ودفاعا عن الوطن، منتهجا الالتزام في الأدب والنقد، مشترطا له، بل ومعتبرا إياه غربالا يكيل به كل إنتاج أدبي، إيمانا منه بأن هذا الأخير رسالة سامية، ومسؤولية يجب أن تراعى شروط تأديتها على الوجه الحق، لا أن يكون أفكارا لقيطة، يحكم عليها بمناهج يتبناها من يتبعون كل ناعق دون تمييز بين غث الوافد وسمينه، محاولة منه الحفاظ على الأصالة والهوية الوطنية، وفي ذلك يقول نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي نقلا عنه رحمه الله: «لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلى بأنني ألفت للشعب رجالا، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته، فأصبح مسلما عربيا، وصححت له موازين إدراكه، فأصبح إنسانا أبيا، وحسبي هذا مقربا من رضى الرب ورضى الشعب».[7]

لقد كان للشيخ محمد البشير الإبراهيمي الدور البارز في الحركة الأدبية والنقدية الجزائرية، وخير دليل

على ذلك إسهاماته وآراءه الصحفية، التي تعد بحق خير موجه للأدباء والنقاد، المتضمنة للنصائح والشروط التي ينبغي أن ينحى الأدباء والكتاب الذين كانوا يرغبون في الإنشاء والقول منحاها، كما أنه استعمل ثقافته اللغوية والأدبية الكبيرة في انتقاد الأدباء والشعراء وتقييمهم وتنبيههم إلى مواطن الجودة والرداءة في أعمالهم.

لقد تصدر محمد البشير الإبراهيمي الأدباء البلغاء، «ذلك أن الحقل الذي يتحرك داخله، يقتضي منه بالضرورة أن يلبي الحاجة التي تستدعيها فكرة الإصلاح، وإن كان الإبراهيمي أديبا أكثر منه مصلحا».[8]

«ويرجع السبب في هذا إلى تكوينه الثقافي المستمد من التراث العربي الإسلامي الذي مكنه من ناصية القول واستيعاب البيان العربي ، والتبحر في اللغة العربية وآدابها، والقدرة على توليد الكلام والموهبة الأدبية، وعرف الارتجال».[9]

ومنه يتبين لنا جليا أن الإبراهيمي عمل جاهدا من أجل تطويع اللغة والأدب خدمة للفكر الإصلاحي: يقول الركيبي: «ثقافة الإبراهيمي لغوية أدبية، وإن تشبع بالعلوم الدينية وأهدافها وبالفكر الإصلاحي ومبادئه».[10]

ليس من الغرابة أن يكون التوجه الإسلامي موجها لقريحة محمد البشير الإبراهيمي، والقرآن الكريم منهلا يغرف منه بيانه، وينهل من سحر بلاغته، يقول الإبراهيمي: «فالقرآن كتاب يحمل في ثناياه دين الله الكامل، وكل ما سبقه من الكتب والصحف فهي إرهاصات له وشارات به وإشارات إليه، ابتعث به نبيه الأمين محمد صلى الله عليه وسلم لهذا العالم الإنساني كله... هاديا له إذا ضل، ومصححا لخطاه إذا أخطأ، ومخرجا له من ظلمات الحيرة إذا التبست عليه مناهج الحياة...ومحررا له من أصناف العبودية الفكرية والبدنية التي تقلب فيها قرونا، ومرشدا إياه إلى وسائل الكمال التي كان يطلبها فلا يجدها».[11]

وله في موضع آخر: «القرآن إصلاح شامل لنقائص البشرية الموروثة، بل اجتثاث لتلك النقائص من أصولها، وبناء للحياة السعيدة التي لا يظلم فيها البشر، ولا يهضم لهم حق، على أساس من الحب والعدل والإحسان... والقرآن هو الذي صلح عليه أول هذه الأمة، وهو الذي لا يصلح آخرها إلا عليه».[12]

لقد حاول الإبراهيمي من خلال كتاباته نشر تعاليم الإسلام، وبثها في النفوس، بغية إحياء الضمائر، والنهوض بالهمم، ردا على محاولة الاستعمار الفرنسي طمس الهوية الإسلامية، وإطفاء النور الرباني، وزرع الجهل.

يرى الإبراهيمي أن قيام أي أمة، وتحقيق رقيها، إنما يقوم على أسس ثلاث: القرآن الكريم، والأخلاق الإسلامية، وكذا بعث التراث وإحياؤه، ومنه فالأدب رسالة ترقوية مجتمعية، يراد منها البناء، والتشبث بالقيم الأصيلة، ومحاربة السموم الدخيلة التي تنضوي على الآراء الفاسدة والمبادئ، وفي ذلك يقول: «فالواجب على اجتماعنا الذي ننشد تكوينه أن يبذل مجهودات قوية لرفع درجة الأخلاق عندنا، ومن فكري الخاص أن هذه الناحية من أمراضنا هي أيسر معالجة من جميع النواحي إذا أحسنا تسيير الجهود الفردية في التربية المنزلية، لأن لنا أساساً تبنى عليه ولا يعسر جد العسر إحياؤه وهو الأخلاق الإسلامية المتوارثة في الجملة والتي تجد معظمها في القرآن الكريم في أوضح عبارة، وأوضح بيان، ثم الأخلاق العربية المأخوذة من آدابهم التي هي أنفس ما خلفوه لنا من التراث».[13]

فالأدب إذن سجل أخلاقي، وإرث حضاري، وعامل فعال في الحركة الإصلاحية، يقول الإبراهيمي في نقده المعتدل للشيخ محمد بن

الطاهر ابن عاشور شيخ الإسلام في الديار التونسية آنذاك: «كنت قرأت وأنا بالمدينة المنورة تفسير المرزوقي لديوان الحماسة، وهو تفسير أي تفسير؟ ولما دخلت الشام بحثت عن نسخة منه فلم أظفر بها فذكرته في مجالس الأدباء، ونوهت بمكانته وشوقتهم إليه وتعاهدنا على أن ننسخه إذا ظفرنا به، ونروجه حتى يقيّض الله له من يطبعه.

ولما قدمت إلى تونس مصرّا على ذلك العهد، سألت عن الكتاب، فقيل لي إنه موجود، وإنه مستعار عند "الشيخ الطاهر بن عاشور"، وأنه يكاد يحنكره احتكارا. فكان هذا الخبر بمجرده مزيداً في قيمة الرجل الأدبية عندي لأن حسن اختيار الكتب أول عوامل الإصلاح في نفس العالم».[14]

إنه السفر من أجل طلب العلم، والبحث عن الأسفار، قصد تثقيف المجتمع، بل والعمل على جلب الكتب، وهذا من باب الجهاد بالقلم، ودحض جهود المستعمر في تعتيم الأبصار، وإماتة القلوب، بعد إضعافها بأدواء الجهالة.

لقد آمن الإبراهيمي بالدور الفعال للأدب في عملية الإصلاح، ومعنى ذلك أنه كان على وعي أكيد بحتمية الوظيفة الإصلاحية للأدب، فأجناسه تتفاوت في تأثيرها حسب مقتضى الحال، ومتطلبات العصر، ولهذا نرى الإبراهيمي يعطي قيمة كبيرة لإنشاء الجمعيات الأدبية ذات البعد الإصلاحي، والتي تسعى إلى محاربة الخزعبلات، والقضاء على الترهات، وذلك ما نلمسه في قوله: «أسست الجمعيات الأدبية، وهي نصيرة الحقائق وعدوّة الأوهام والخرافات، هذه الجمعيات التي ذكرتها لكم وهي قليل من كثير، كانت من أكبر العوامل في تآخي البشر وتقرّب الشعوب من بعضها وهي أقوى الأسباب في غلبة الانفصال، والتعارف على التناكر، والوفاق على الخلاف، والاجتماع على الافتراق، بل تغلّب العلم على الجهل والحق على الباطل والفضيلة على الرذيلة».[15]

وأما مجالات القول التي تم التركيز عليها في العمل الأدبي الإصلاحي، الخطابة والتمثيل "المسرح"، يقول الإبراهيمي: «التمثيل والخطابة عند الأمم الحية توأمان، وأخوان شقيقان، وأن منزلتهما من دواعي التهذيب والتربية الفاضلة لأرفع منزلة، وأن مكانتهما من بين مقومات الأخلاق لمنزلة الطعام والشراب من بين المقومات الجسدية. وما بنيت نهضة من النهضات الأخلاقية في الأمم الجديدة إلا وللتمثيل والخطابة في بنائها القسط الأوفر والحظ الأولى.

وليس موقف الممثل بينهم دون موقف الخطيب ولا موقع الرواية من نفوسهم دون موقع الخطبة. فإنما الخطيب والممثل شيء واحد — الممثل خطيب إذا أحسن تصوير المغزى، وشخص الحقائق الغائبة للمشاهدين كالحاضر المشاهد، وألبس الخيالات لباس الواقع المحسوس، والخطيب ممثل إذا عرف كيف يقصّ الخبر وكيف يستخرج العبر، وكيف يسوق المؤثرات فيترك في نفوس سامعيه أعمق الأثر».[16]

ولم يهمل الإبراهيمي ضرورة الإيعاز إلى شعراء الملحون لأن ينظموا قصائد ومقاطع تتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، لكي تنشرها جمعية العلماء بين العامة وترغبهم في حفظها.[17]

ويحاول رحمه الله أن يزيل أي سوء فهم حول أهمية هذا النوع من التعبير الشعري الذي ارتبط عند الكثيرين بإضاعة الوقت والكسل وربما المنكرات غيرها مما ينفر منه، فقال: «أنا أحكم بأن في الشعر الملحون ما هو شعر على الحقيقة، فقد سمعت من شعر القرن الماضي ما يفيض حكمة وحثاً على الفضائل والكمالات، وتخويفاً من الله

والآخرة، وسمعنا منه ما يتضمن المغازي والسير وإن كان معظمه كذباً».[18]

ويقول في موضع آخر: «وكلكم يعلم أن هذا اللسان ضاع من بيننا فأضعنا بضياعه كل ذلك التراث الغالي النفيس من دين وتاريخ، وأن اللغة هي المقوّم الأكبر من مقوّمات الاجتماع البشري، وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها، واستتبع ضياع اللغة ضياع المقومات الأخرى. ويأبى لكم الله والإسلام أن تضيعوا لغة كتاب الله ولغة الإسلام. يأبى لكم الله إلا أن ترجعوا منكم، فجمعيتكم – بعون الله وبفضل هممكم – تركب لهاتين الغايتين من الوسائل كل ممكن، فمن محاضرات ودروس عامة إلى دروس خاصة إلى تنشيط ودروس لهذين، وهي تعتمد في الإعانة على القيام بهذا العهد الذي قطعته على نفسها -بعد الله- على كل من يصله صوتها من أبناء هذه الأمة، وهي تعتقد أنها لا تستغني عن الإعانة من أنصارها مهما قلت، وإنها لا تستغني عن حنكة الشيب وتجاربهم، ولا عن اعتدال الكهول وحكمتهم، ولا عن نشاط الشبّان وفتوتهم، وإن تكافل هذه القوى الثلاث سيخرج للأمة الجزائرية جيلاً مزوداً بالإسلام الصحيح وهدايته والبيان العربي وبلاغته، عارفاً بقيمة الحياة سبّاقاً في ميادينها متحلياً بالفضائل عزوفاً عن الرذائل، عارفاً بما له وما عليه واقفاً في مستقر الحقيقة الواقع، لا في ملعب الخيال الطائر».[19]

وهذا لا يعني التعصب لبعد واحد من الهوية وهو اللغة العربية، فالإبراهيمي يدرك أنه يعيش في عصر تقوت فيه لغات أجنبية بفعل التراكم الحضاري المكتسب من قبل الغرب، ولهذا فمن الواجب تعلم لغات جديدة تعيننا على التعلم من الآخرين، ولهذا يبدو الإبراهيمي متحمسا لمعرفة اللغات، يقول عن أحد خلصائه من المصلحين: «الرجل صبور والصبر مطية النجاح وقوام الحياة كلها. الرجل معتمد على نفسه، يظهر ذلك في جميع أطوار تعلّمه وأن الهمّة التي سمت به إلى تعلم عدة لغات حيّة أجنبية وإتقانها هي عنوان هذا الخلق العظيم، خلق الاعتماد على النفس، والاعتماد خير ما حمل الآباء عليه أبناءهم فهو الرائد إلى السعادة وهو أساس الحياة الاستقلالية».[20]

ويرى الإبراهيمي أن الحرية لازمة للأدب، وأن القيود الإيديولوجية تصطدم مع طبيعة الإبداع، ولهذا فمن الواجب إعطاء الحرية الكاملة للأديب من أجل التجريب وإبداع أشكال جديدة للتعبير دون قيد، فالزمن عامل فاعل في تحديد قيمة الجديد وأهميته. فالإبراهيمي يرد مزاعم أولئك الذين يئدون الإبداع في مهده حتى قبل أن يكتمل نضجه ويقوم هيكل، فيقول: «من حق الأديب أن نترك له الفرصة الملائمة ليجرب ويجرب، فالتجربة إن أثمرت كانت فتحا جديدا، وإلا فهي خبرة تصقل الموهبة، وتكشف حقائق الحياة».[21]

كما يرى الإبراهيمي أن حل مشكلة الأدب تكمن في حل مشكلة الأديب نفسه، يقول بعد أن ذكر وظائف الأدب في بناء المجتمع وتشكيل حضارته وحاجة الأديب للرعاية من أجل ضمان سيولة إبداعية مستمرة: «ولقد أدرك هذه الحقيقة السابقون من قومنا فحاطوا الأديب بالحماية والرعاية ومهدوا للأديب أن يخلص لفنه ويخلص فنه له... عرفنا ذلك أيام دمشق عاصمة الأمويين، وبغداد عاصمة الرشيد والمأمون، والقاهرة عاصمة المعز وصلاح الدين، وفي المغرب على عهد حكوماته العربية الخالصة... وأول ما يجب أن نحمي منه الأديب والأدب هو تلك العواصف التي تطفيء جذوته وتمسح نوره ورونقه، وتمسه بالعوز والكدية والصعلكة فلا بد أن نبذل للأديب من رحابة الحياة

ويسر العيش ما يجعله معتدل الحس راضي النفس صادق التعبير غير ضجر بضيقه وعسره.

إلى متى تظل تلك الأسطورة المشهورة ملصقة بالأديب والأدباء؟... أعني الأسطورة التي تحكي أن الفقر أول سمات الأديب؟ إلى متى نظل نؤمن بالفقر الملهم والجوع العبقري والبؤس الموحي؟... ولست أريد أن نقطع للأدباء الإقطاعيات أو نقيم لهم التكايا، فقد درست تلك الأساليب وبارت، وإنما يدور حديثي حول تقدير الأثر الأدبي في حياته، وتقييم الأدب تقييما عمليا لا نظريا ولا عاطفيا فقط، فلن يقتات الأديب عاطفة مهما سمت ولا مدحا مهما اتسع».[22]

كما أكد البشير الإبراهيمي على أهمية النقد الذاتي، حيث يشير إلى التلازم بين الإصلاح ونقد الذات، يقول رحمة الله عليه: «من كتم داءه قتله، وما دمنا ونحن بمعزل عن الحقائق وفي صمم عن استماع النصائح فنحن بعداء عن الحق، وما الحق إلا أن نتّحد ونسعى بلا فتور. ما الحق إلا أن نتعاون، ما الحق إلا أن ندع التخاذل جانباً ونتصافح على الاستمالة في سبيل الحق، ما الحق إلا أن نزن الأشياء بموازينها فلا ندع المجال للوهم ينقض ويبرم لنا السفاسف في صورة الجبال ويظهر لنا الجلائل بمظهر التافه الحقير، فهذا نوع غريب من أمراض النفوس ما فشا في أمة إلا وكان عاقبة أمرها خسراً».[23]

معلوم أن الإبراهيمي كان راوية لشعر شوقي فقد حفظ الشوقيات عن ظهر قلب، وابتلي بحب شعر شوقي إلى درجة التعصب أحيانا، يقول عن رحلته المشرقية: «فمررت على القاهرة وأقمت بها ثلاثة أشهر طفت فيها بحلق الدروس في الأزهر، وزرت شوقي الذي كنت راوية لشعره».[24]

ولقد بلغ به عشقه لشعر شوقي أن ظاهر به على جميع شعراء العربية، وغالى به عليهم، يقول: «ورأيي في شوقي معروف في المشرق والمغرب بين خلصائي من الأدباء وخلطائي من المتأدبين، فلم أزل منذ كان لي رأي في الأدب أغالي بقيمة شوقي في الشعراء السابقين واللاحقين وربما شاب هذا الرأي مني شيء من الغلو في مقامات الجدل والمفاضلة بين شعراء العربية وما كنت أتهم نفسي بالعصبية لشوقي ولا كان الناس يتهمونني بتحيز لأنني كنت قواما على شعر شوقي أستحضره كله أو جله حتى ليصدق علي أنني راوية شوقي بالمعنى الذي كان يعرفه أسلافنا في الرواية».[25]

ولا يتركنا الإبراهيمي مع رأي غير معلل بل يعمد إلى إبراز أسباب تفضيله شوقي على المتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في عصره، يقول: «ولقد دأب شوقي بتقليد المتنبي في أول أمره فجاراه، وما كبا وما قصر ثم شآه في التشبيب الصادق والغزل الرقيق، ثم طاوله فطال عليه في وصف الآثار الباقية عن الحضارات الداثرة وفي التغني بالأمجاد الغابرة لبني جنسه أو بني وطنه أو بني دينه على حين كانت عبقرية المتنبي لا تتجاوز به مدح شخص يجود أو شجاعة وانتصارات قد يكون الغناء فيها للممدوح».[26]

يرى الإبراهيمي أن تدين الأديب وسلوكه ينبغي ألا يكون معيارا حاسما لتحديد إسلامية إبداعه، ولقد أثار هذا الموضوع في معرض حديثه عن شوقي والذي كان يشاع عنه التساهل في إقامة الشعائر والعبادات، فالإبداع هو محصلة التفاعل الوجداني للأديب مع الدين، أما السلوك فلا يمكن أن يكون مقياسا للحكم على الإبداع فـ «التدين أثر الدين في النفس أو ممارسة شعائره بالجوارح وليس من موضوعنا المحدد البحث عن تدين شوقي بمعنى إقامته لرسوم الدين وشعائره لأننا في شغل شاغل عن ذلك بهذا الفيض المدرار الذي يفيض به شعر شوقي في التغالي بالإسلام وتاريخه وأمجاده وبهذا

الإيمان القوي بالله وقضائه، وبهذا التصوير لبدائع مصنوعاته، وبهذا الترديد اللذيذ للقرآن والحض على التمسك به».[27]

إن التوجه الإسلامي لم يعارض الأدب ولا النقد، بل سما به عاليا، وبلغ به مبلغا عجز عنه التوجه الغربي الفلسفي الذي حط من قيمته وقيمه، ولله در علي الحسني الندوي إذ يقول: «فالإسلام لم يعارض الأدب، ولم يتخل عن مجال من مجالاته الكثيرة إلا في حدود التزامه بالحق والنزاهة، ونفيه للانحراف والعدوان، وبه يتعين المفهوم الإسلامي للأدب، وتتبين صلاحيته لتمثيل الحياة، ويتبين أيضا أن الأدب المشتمل على هذا المفهوم لا يعجز عن التعبير عن أي جانب من جوانب الحياة، ولا عن تأدية رسالة الأدب الموكولة إليه، غير أن ميزة الأدب الإسلامي هي خدمة الحياة بالبناء والإصلاح...».[28]

في الأخير لا يسعنا إلا أن نقف وقفة إجلال وتقدير لهذا العلامة الفذ الذي خدم الأدب والنقد، وفق توجه إسلامي، حاملا شعار الكلمة الطيبة ذات الأصل الثابت والفرع الذي يسمو في السماء، خدمة لقضايا الأمة.

ومن رأى في فكر البشير الإبراهيمي وأمثاله من الإصلاحيين الإحيائيين جمودا وتبعية لزمن مضى، وفكر انقضى، ففي أصالته نظر، وفي ثقافته مدخل لكل غث وسمين، يقول حسن بن فهد الهويمل: «الأدب لم يعد جمالياً للمتعة، وإنما استصحب الجمالية وتخطى بها إلى عمل جاد لتحويل المسار البشري وتغيير قناعاته، وثقافة النص تغلب على جمالياته، والثقافة والإبداع يشكلان حجر الزاوية في العملية الإبداعية فلا أدب بدون ثقافة معمقة وشاملة، ومن ثم أصبح الأدب عملاً فكرياً متلبساً بالفلسفة يطرح رؤية متميزة للكون والحياة والعالم، هذا التحول في مسار الأدب جعل له خطره وأهميته وأثره الواضح في تشكيل ذهنية المتلقي مما دفع الصفوة من رجال الفكر والأدب إلى التفكير في التدخل المباشر لتوجيه الأدب والفن عامة وجهة تنسجم مع المقتضى الإسلامي، وتسهم في صياغة الذهنية صياغة توجه الإنسان إلى بارئه.

وإذا كان هناك موقف رافض أو متردد أو متحفظ من مشروعية مصطلح الأدب الإسلامي، فإن هذا الموقف يجب أن يكون أكثر احتداماً وتصلباً في وجه المصطلحات الطارئة زمناً، والطارئة فكراً، مصطلحات تنطوي على توجهات فكرية مضادة للفكر الإسلامي، إن هناك أدباً وجودياً، وماركسياً، وقومياً، وحداثياً، وعلمانياً، هذا بالنسبة للبعد الدلالي، وهناك آداب أخرى حسب الاتجاه الفني، ومذاهب واتجاهات تسرح وتمرح في وسطنا، وتسهم في تلويث وعينا، يتبناها أبناء المسلمين، أو على الأقل يمنحونها مشروعية الوجود ولا يجدون غضاضة من معاشرتها وطرد الغربة عنها، ولم نسمع إلا القليل ممن يبحث في مشروعيتها. وإزاء طوفان المذاهب الأدبية لا بد من أدب إسلامي يبرز شخصيتنا، ويكرس خصوصيتنا، والفن هو الأكثر قدرة على حمل هذه الخصوصية. وإذا كنا قد رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وتحملنا في سبيل ذلك مكائد العالم المتكبر، فلا أقل من أن نسعى لتأصيل وتكريس الأدب الإسلامي، ليسهم في الذوذ عن مقدراتنا، ومقدساتنا الفكرية، وليس فيما نسعى إليه بدعة ولا تجزئة، فأسلمة الأدب مشروع إسلامي، ومجيء المصطلح لم يكن بدعاً من القول فالإسلام، منذ البدء مارس أسلمة الشعر».[29]

الهوامش:

(1) أنطونيوس بطرس، الأدب تعريفه أنواعه مذاهبه، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس-لبنان، د.ط، 2005م، ص14.

(2) محمد الرابح الحسني الندوي، الأدب الإسلامي وصلته بالحياة مع نماذج من صدر الإسلام، قدم له سماحة الأستاذ الجليل: أبو الحسن علي الحسني الندوي، مؤسسة الرسالة، بيروت – سوريا، ط1، 1405هـ/1985م، ص25

(3) انظر، حسن بن فهد الهويمل، الأدب الإسلامي بين القبول والرفض، مجلة البيان، العدد 50، 1988م/1408هـ، ص.ص 46.44.

(4) محمد الرابح الحسني الندوي، الأدب الإسلامي وصلته بالحياة مع نماذج من صدر الإسلام، ص19.

(5) المرجع نفسه، ص 17 وما بعدها.

(6) المرجع نفسه، ص 20.

(7) أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م، ص288.

(8) محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، ديوان المطبوعات الجامعية وهران، د.ط، د.ت، ص187

(9) عبد الله الركيبي، تاريخ النثر الجزائري الحديث 1830-1974م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية، دار نافع للطباعة، مصر، د.ط، 1976م، ص27

(10) المرجع نفسه، ص 28.

(11) أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص224.

(12) المرجع نفسه، ج4، ص 78

(13) المرجع نفسه، ج1، ص 52 وما بعدها.

(14) المرجع نفسه، ج1، ص 224

(15) المرجع نفسه، ج1، ص 61.

(16) المرجع نفسه، ج1، ص67.

(17) انظر، المرجع نفسه، ج1، ص85.

(18) المرجع نفسه، ج1، ص146.

(19) المرجع نفسه، ج1، ص 134 وما بعدها.

(20) المرجع نفسه، ج1، 466.

(21) المرجع نفسه، ج5، 213.

(22) المرجع نفسه، ج5، 213.

(23) المرجع نفسه، ج1، ص56،

(24) المرجع نفسه، ج5، ص 165.

(25) المرجع نفسه، ج5، 227 وما بعدها.

(26) المرجع نفسه، ج5، 227.

(27) المرجع نفسه، ج5، 204.

(28) محمد الرابح الحسني الندوي، الأدب الإسلامي وصلته بالحياة مع نماذج من صدر الإسلام، ص 26 وما بعدها.

(29) انظر، حسن بن فهد الهويمل، الأدب الإسلامي بين القبول والرفض، ص.ص 50.48.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م.
2. أنطونيوس بطرس، الأدب تعريفه أنواعه مذاهبه، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس- لبنان، د.ط، 2005م.
3. عبد الله الركيبي، تاريخ النثر الجزائري الحديث 1830-1974م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية، دار نافع للطباعة، مصر، د.ط، 1976م.
4. محمد الرابح الحسني الندوي، الأدب الإسلامي وصلته بالحياة مع نماذج من صدر الإسلام، قدم له سماحة الأستاذ الجليل: أبو الحسن علي الحسني الندوي، مؤسسة الرسالة، بيروت – سوريا، ط1، 1405هـ/1985م.
5. حسن بن فهد الهويمل، الأدب الإسلامي بين القبول والرفض، مجلة البيان، العدد 50، 1988م/1408هـ.
6. محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، ديوان المطبوعات الجامعية وهران، د.ط، د.ت.